لا تخطونه أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة لا تتكلف لواحد شيء
يقدر شبهه به وهو القول الفحل والمذهب الجزل بيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى
معزولا بعضها عن بعض لم تأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها كما فعل امرؤ القيس
وجاء في القرآن وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت
شيئا واحدا بأخرى مثلها كقوله تعالى مثل الذين حملوا التوراة الآية • الغرض تشبيه حال
اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار
الحكمة وتساوي الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها من الأوقار لا يشعر
من ذلك إلا بما يمر بدفيه من الكد والتعب وكقوله واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء
أنزلناه من السماء المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر فأما أن يراد تشبيه
الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيرة شيئا واحدا فلا فكذلك لما وصف وقوع
المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم
بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة
مع رعد وبرق وخوف من الصواعق فإن قلت الذي كنت تقدره في المفرق من التشبيه من
حذف المضاف وهو قولك أو كمثل ذوي صيب هل تقدر مثله في المركب منه قلت لولا
طلب الراجع في قوله يجعلون أصابعهم في آذانهم ما يرجع إليه لكنت مستغنيا عن تقديره لأني
أراعي الكيفية المنتزعة من مجموع الكلام فلا علي أولي حرف التشبيه مفرد يتأتى التشبيه
به أم لم يله ألا ترى إلى قوله إنما مثل الحياة الدنيا الآية كيف ولي الماء الكاف وليس
الغرض تشبيه الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يتمحل لتقديره ومما هو بين في هذا قول لبيد

• وما الناس إلا كالديار وأهلها • بها يوم حلوها وغدوا بلاقع •

لم يشبه الناس بالديار وإنما شبه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم وفنائهم بحلول
أهل الديار فيها ووشك نهوضهم عنها وتركها خلاء خاوية فإن قلت أي التمثيلين
أبلغ قلت الثاني لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته ولذلك أخر

وهم يتدرجون في مثل هذا من الأهون إلى الأغلظ فإن قلت لم عطف أحد التمثيلين
على الآخر بحرف الشك قلت أو في أصلها لتساوي شيئين فصاعدا في الشك ثم اتسع
فيها فاستعيرت للتساوي في غير الشك وذلك قولك جالس الحسن أو ابن سيرين تريد أنهما
سيان في استصواب أن يجالسا ومنه قوله تعالى ولا تطع منهم آثما أو كفورا أي الآثم
والكفور متساويان في وجوب عصيانهما فكذلك قوله أو كصيب من السماء معناه أن كيفية
قصة المنافقين مشبهة لكيفيتي هاتين القصتين وأن القصتين سواء في استقلال كل واحدة
منهما بوجه التمثيل فبأيتهما مثلتها فأنت مصيب وإن مثلتها بهما جميعا فكذلك والصيب
المطر الذي يصوب أي ينزل ويقع ويقال للسحاب صيب أيضا قال الشماخ •
وأسحم دان صادق الرعد صيب • وتنكير صيب لأنه أريد نوع من المطر شديد هائل
كما نكرت النار في التمثيل الأول وقرئ كصائب والصيب أبلغ والسماء هذه المظلة
وعن الحسن أنها موج مكفوف فإن قلت قوله من السماء ما الفائدة في ذكره والصيب
لا يكون إلا من السماء قلت الفائدة فيه أنه جاء بالسماء معرفة فنفى أن يتصوب
من سماء أي من أفق واحد من بين سائر الآفاق لأن كل أفق من آفاقها سماء كما أن كل
طبقة من الطباق سماء في قوله وأوحى في كل سماء أمرها والدليل عليه قوله •
ومن بعد أرض بيننا وسماء • والمعنى أنه غمام مطبق آخذ بآفاق السماء كما جاء بصيب
وفيه مبالغات من جهة التركيب والبناء والتنكير أمد ذلك بأن جعله مطبقا وفيه أن
السحاب من السماء ينحدر ومنها يأخذ ماءه لا كزعم من يزعم أنه يأخذه من البحر ويؤيده
قوله تعالى وينزل من السماء من جبال فيها من برد فإن قلت بم ارتفع ظلمات قلت
بالظرف على الاتفاق لاعتماده على موصوف والرعد الصوت الذي يسمع من السحاب كأن
أجرام السحاب تضطرب وتنتفض إذا حدتها الريح فتصوت عند ذلك من الارتعاد
والبرق الذي يلمع من السحاب من برق الشيء بريقا إذا لمع فإن قلت قد جعل الصيب
مكانا للظلمات فلا يخلو أن يراد به السحاب أو المطر فأيهما أريد فما ظلماته قلت

Copyright © King Saud University